

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[431] نعتقد بأنَّه لا يوجد سوى تفسير واحد واضح لهذه الآية، يمكن تبيانها من مؤدَّى ظاهرها، وهذا التفسير هو: إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَاقِبُ أَوْ يُوَاقِدُ أَحَدًا بِالْعَذَابِ، قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَّضِحَ وَيَسْتَبِينَ تَكْلِيفُهُ، فِي الْبِدَايَةِ يَضَعُ اللَّهُ تَعْلِيمَاتِهِ وَأَوَامِرَهُ أَمَامَ النَّاسِ، فَإِذَا التَّزَمُوا بِهَا وَأَطَاعُوا فَسْتَنَالَهُمْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. أَمَّا إِذَا عَصَوْا وَخَالَفُوا وَلَمْ يَلْتَزِمُوا الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ الرَّبَّانِيَّةَ، فَسَيُحِيقُ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَيُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِهِمْ. وَإِذَا تَأَمَّلْنَا الْآيَةَ، وَدَقَّقْنَا النَّظَرَ فِيهَا بِشَكْلٍ صَحِيحٍ، فَسَنَرَى أَنَّ هُنَاكَ أَرْبَعَ مَرَاهِلَ لِهَذَا الْبِرْنَامِجِ الرَّبَّانِيِّ، هِيَ: 1 - مرحلة الأوامر والنواهي. 2 - مرحلة الفسق والمخالفة. 3 - مرحلة استحقاق المجازاة. 4 - مرحلة الهلاك. والملاحظ هنا، أَنَّ المراحل الأربع هذه، معطوفة على بعضها البعض بواسطة "فاء" التفریع. هنا يُطْرَحُ هَذَا السُّؤَالُ: لِمَاذَا كَانَ الْمَأْمُورُونَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ هُمُ الْمُتَرَفِّعُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ؟ (1). فِي الْإِجَابَةِ عَلَى السُّؤَالِ الْمَثَارِ، لَا بُدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى مِلَاحَظَةٍ تُعْتَبَرُ مُهِمَّةً فِي تَوْضِيحِ الْمَعْنَى، وَهِيَ أَنَّ الْمُتَرَفِّعِينَ هُمُ وَجْهَاءُ الْقَوْمِ، وَرُؤَسَاءُ الْمَجْتَمَعِ - طَبْعًا هَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَخَصُّ الْمَجْتَمَعَاتِ الْمَرِيضَةَ - وَالْآخَرُونَ تَبِعُ لَهُمْ. إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ التَّعْبِيرَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَنْطَوِي عَلَى إِشَارَةٍ مُهِمَّةٍ، هِيَ أَنَّ أَغْلَبَ الْمَفَاسِدِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ تَنْبَعُ مِنَ الْمُتَرَفِّعِينَ، أَصْحَابِ الْأَمْوَالِ، الْبَعِيدِينَ عَنِ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ النَّاسِينَ فِي تَعَالَى.